اصله اختلافاً عظيماً . في البدء كان الله ومن الله صدرت الحركة

ما اعظم هذه العبارة التى تبين لنا ان جميع الاشياء التي نراها برزت من الحركة الاولى لان هذه الحركة لم تغير المادة من وضع الى وضع بل هزتها هزة واحدة قادرة على الابداع وعلى ان تسير وحدها الى الامام دون ان تقف ، لم ينتج من حركة المادة بتلك الصورة الشموس والنجوم والكواكب فقط بل ان تشرق الشموس الى ما شاء الله وان تبعث السيارات حياة قادرة على التكاثر الدائمي ليس الخلق عمل حركة متتابعة بل عمل حركة واحدة مبدعة دائمية . فيمكننا ان نقول اذاً ان الالكترونات المتألفة كالحباحب في كل مادة تمثل لنا ارتجاج حركة ارادة الله الاولى الدائمية ولم تزل المسكونة باجمعها ترن من مسّة البارئ الاولى ، تكلم الناس قبلاً عن النشوء والآن يبحثون عن النشوء المبدع لان الذي ادهشهم ليس الحركة بل صفاتها . ليس العالم حصاة منحدرة من قمة جبل بل سهماً صوب على هدف في فضاء الابدية الواسع .

اذا تفكرنا في الحركة وعرفنا ان كل معدن وخشبة وحجر وورقة وكل كتلة تراب وقطرة ماء في حركة دائمية نتعجب من كلمة « الجمود » المستعملة بين الناس ونقدّر صفاء العقل الذي بواسطته تشاركنا مع المحرك الاول لكل الكائنات لكن هنالك جموداً واحداً في وسط عالم لا يهدأ ابداً وهو في نفس الانسان

الحلة فريد توما

بطرس الاكبر وابنه الكسس

كانت البلاد الروسية في ذلك العهد منفردة عن سائر الممالك الاوروبية في عاداتها واخلاقها وسائر شؤونها منقطعة عنها لا تتصل باهليها ولا يتصلون بها بل يحسبونها حسبانهم للصين بلاداً واسعة الارجاء كثيرة السكان مستغرقة في الجهل والبربرة

وما ظلموها في نسبتها للخشونة وبعدها عن منازل الحضارة والعمران فقد وصفوا حقيقة حالها فان الشعب كان يجهل القراءة والكتابة والتجارة ولا يألف غير المراوغة واختلاق الاكاذيب والنفرة من الغريب والبغض له بحيث لم يكن يقصدها الا نفر من تجار الالمان وهم معظم من يجيئها من الغرباء ان لم نقل كلهم وينزلون ارباض موسكو ويلقون من الاهلين كل قسوة وامتهان.

نشأ بطرس الاكبر في تلك الامة وهي على ما علمت من حال تأخرها وانحطاطها وكان وهو حدث يلعب مع صغار جالية الالمان في حيهم ويرى تفوقهم على مواطنيه في الآداب والاخلاق فتتوق نفسه الى اصلاح قومه والنهوض بهم الى بقاع المدنية والعمران وما شب حتى تمكن منه حب الاصلاح والرغبة الشديدة فيه وتبوأ الملك وهو فتى يافع الشباب لم يتجاوز من عمره السبعة عشر

ربيعاً فقال في نفسه اني اريد ان تكون مملكتي كالممالك الاوروبية اريد لها قدماً راسخةً في العلم وجيشاً عرمرماً للدفاع واسطولاً منيعاً يصلها باوروبا ويقوي العلائق بينها وبين العالم وبالجملة اريد ان اجعل من قومي امة تساوي الامم الاوروبية في الحضارة والرقي

على ان اماني النفس الكبيرة لهي ايضاً كبيرة في قوتها فلا يوهن عزمها بهرجة الملك ولا يقعدها نزق الشبيبة وانما تتغلب على الموانع في سبيلها وتتجاوز العقبات الكؤود حتى تبلغ الغاية من مرامها وهكذا كان من القيصر بطرس الاكبر الذي هجر بلاده وجاب اوروبا ونزل المانيا وهولندا وفرنسا واخذ عن قومها بنفسه ما تحتاجه الروسية من معدات العمران وليس الذي تحتاجه بالشيء القليل فقد كان يعوزها الجيش المدرّب وليس بين قوادها من يصلح للقيادة ثم اسطول منيع ولا تجد بين اهلها نوتياً مخر البحر او ركب غير صغار القوارب ولذلك رجع الى وطنه فكان مهندساً وصانعاً ومعلماً

وما بطرس الاكبر الاّ مثل سائر رجال الاصلاح الذين وجدوا في وسط ضرب الجهل على بصائر اهله حجاباً كثيفاً فلا يبصرون النور ولا يريدون الخروج من الظلمة وينكرون على المصلحين اعمالهم ويحسبونها شيئاً ادّاً ويقيمون في سبيلهم العقبات ويناصبونهم

من العدوان حرباً دامية على ان يقام هذا الملك العظيم من الصولة ومكانه من البسطة والجاه وما اتصف به من القسوة والشدة وما امتاز به من الحزم والاقدام كل ذلك كان ويلا على اعداء النور وسعاة الشر فسحقهم سحقاً وطهر البلاد من مفاسدهم ونزع بحدّ سيفه من امته رذيلتين هما الكذب والكسل . حبذا عمل المصلحين . وما مرّ على ملكه العشرون عاماً حتى اصبحت الروسية من اعظم ممالك الارض قوةً واقتداراً واعلاهن شأناً ومقاماً

ولما بلغ بطرس من سنيه السادسة عشرة (سنة ١٦٨٩) تزوج من ايدوكسيا لابوشين وهي ابنة امير كبير من امراء الاقطاع الذين كان لهم يومئذٍ الطول والحول في البلاد ولذلك كرهوا من القيصر نزوعه الى الاصلاح فعمدوا الى المعارضة ووضع العوائق في طريقه فالتفت اليهم ونكل بهم تنكيلاً شنيعاً ثم شعر من زوجته بمعالأتها لهم في السرّ فطلقها وسيرها الى دير سوسدال والبسها فيه ثوب الرهبنة وعهد بها لعناية الراهبة هيلانة فظلت كذلك سحابة ايامها وتزوج بعد طلاقها من فتاة احبها وتوسم فيها الذكاء والنباهة وقد صدق فيها حسبانه فهي الامبراطورة كاترينا النشيطة العصامية التي رافقته في حروبه ابان اليأس وحاشا ان تقال هذه الكلمة لمثل هذا البطل المغوار والاجدر ان يقال ابان الصعاب فانها

باعت جواهرها لينفق ثمنها على الجند

وكان له ولد اسمه الكسس رزقه بعد سنة من زواجه الاول اي سنة ١٦٩٠ وكان عمره تسع سنين يوم ابعدت امه الى الدير سنة ١٦٩٩ وكان محباً لها مبغضاً لابيه يحازب آل لابوشين عليه ويشايع معارضيه الذين يعرف امثالهم لعهدنا هذا باسم الرجعيين على ان انهماك القيصر بالاعمال العظيمة اشغله عن الاهتمام بتهذيب ابنه فربي بين اهل الجمود ونشأ على مايكره ابوه ، كسولاً مسرفاً مبغضاً للاصلاح والمصلحين محباً لاهلِهِ معجباً باعداء النور اهل الغواية والفساد .

واليك حكاية تدل على مقدار عدوانه لابيه وتتخذ مثالاً لسائر اعمالهِ في المروق عن طاعتهِ والسعي الى مضادتهِ ذلك انهُ اتفق للقيصر ان طلب منه يوماً ان يأتيه بالخريطة التي رسمها وكان الكسس يخاف اباه جداً ويقف منه موقف العبد من مولاه فدخل حجرته ورجع منها بعد حين ويده اليمنى معصوبة وحكى انه وقع له حادث شؤم ذلك ان غدارة فجرت بغتة فخرق رصاصها يده ولكن عرف القيصر بعد حين ان الحادث مختلق وانما قصد ابنه به الاحتيال عليه ليتخلص من العمل بامره . هذه هي اخلاق الكسس الذميمة التي عجز ذلك المصلح عن تهذيبها مع انه قوّم شعباً بالملايين واصلح بلاداً واسعة الارجاء ولكنه خاب في اصلاح رجلٍ فرد .

« يتبع »

رنات الاوتار السحرية

مات حسونها

نظم « الياس افندي ابوشبكة » هذه القصيدة الرقيقة يصف فيها نحيب فتاة على موت اليفها ومؤنسها ومغنيها وهو الطائر الحسن الصوت الجميل الهيأة المعروف بالحسون :

الفيتها ومن التحسر لا تعي
تذري الدموع وحيدة في المخدعِ
فكأنها والدمع يخطف صوتها
رمز التعاسة في الزمان الموجع
فسألتها عما يثير شجونها
وعلام تطلق نفرة المتفجع
فاذا بها رفعت لطافة رأسها
بتخشع اوحى اليَّ تخشعي
ورنت الى قفصٍ هناك معلق
بمحاجرٍ غرقت بماء الادمع
فخزوت ان الدهر سلَّم طيرها
ليد الحمام فطيرها لم يرجع
قالت فقدت من الحياة مؤاسياً يا طالما اوحى الهيام لاضلعي